

الله محبة

ما أن انقضت ليلة ما قبل الفصح الشريف -عيد الأعياد وموسم المواسم- وبدأ شفق النهار ينبلج حتى أخذ الضيق يتفاقم بين تلاميذ القديس ثيودوسيوس الكبير، البالغ عددهم اثنا عشر، لافتقارهم إلى المواد الغذائية من خبز وزيت وغيرهم. ولم يقتصر ضيقهم على فقد الخبز والزيت وحسب، ولكن على عدم توفر المواد اللازمة لإقامة الذبيحة الإلهية، إذ بدونها يغدو تناول جسد المسيح ودمه الكريمين مستحيلًا عليهم. فجاءوا إلى القديس يخبروه بواقع الأمر.

طلب منهم أن يعدوا المائدة المقدسة ولا يهتموا بشيء البتة، مذكراً إياهم بمن أطمع قديماً الشعب الإسرائيلي في البرية (خر 16: 36)، وأشبع الجماهير الغفيرة بمجيئه (مت 14: 20)، مشدداً على قدرة الرب وعطائه المستمر وعنايتهم بهم وهم أبناءه.

وإذ رأهم يستسلمون إلى اليأس أخذ يعظهم بلطف وهدوء قائلاً: هل سمعتم بأحد ممن اتكلوا على الله قد أهمل في حياته إهمالاً تاماً إهمالاً؟ أو بأحد صبر إلى النهاية وما تعزى؟ تذكروا ما قاله أيوب وداود: "الذي يشبع كل نفس ويعد الطعام للغراب ولصغار الغراب". (أيو 38: 41 ومز 146: 9).

ينبغي أن نميز بين الاهتمام البشري والعناية الإلهية . وإذا أدركنا الفرق بينهما إدراكاً جيداً نفطن أن كل ما تركناه طوعياً من أجل المسيح سيغدقه الله بعنايته علينا.

ولم ينقض وقت طويل حتى غدا كلامه فعلاً محققاً رجاء تلاميذه فجرى لهم ما جرى لإبراهيم قديماً في الجداد لم أرسل له كبش المحرقة (تك 22: 13).

فإن أحد الأغنياء ممن عرفوا أن يفتنوا من عمل الإحسان -بتوزيعهم الأموال على المحتاجين وجعلهم مادة المال عنصراً لخلاص النفوس- وزع بسخاء من خيراته على الجميع، وبخاصة على الذين يعيشون بعيداً عن الناس ليكونوا أقرب من الله، ولم يشمل عمله الخيري رهبان القديس ثيودوسيوس، ربما لسهوه أو لجهله، أو لعل الله أراد امتحان البار وتمجيده.

وبعد أن أتم القديس كلامه، إذا برجل من عملة الرجل الغني يقود دابة محملة وينطلق بها إلى دير آخر لتسليم المؤونة. ولما اقتربت الدابة من دير البار وقفت هناك دون إرادة صاحبها وجمدت كالصخرة ولم تتزحزح من مكانها رغم الانهيار عليها بالضرب وإثخانها بالجراح.

وإذا رأى الرجل جمود الحيوان فكر جيداً وقال: لعل في الأمر قوة إلهية! وللحال ترك الحيوان يسير بحرية لينطلق حيث يشاء. فتوجه مباشرة إلى الداخل كما لو قاده أحد بحال غير منظور.

وما أن دخل الحيوان الدير ورأى السائق ما يعاني الرهبان من فقر حتى أدرك سرّ العناية الإلهية العجيب وازداد ذهولاً من تدبير الله وجعله إياه وسيلة لرفع الضيق عن كرسوا حياتهم لإرضاء الله واحتمال ما تصادفه أجسادهم من عناء وضعف.

فوزع عليهم المؤونة وأعلم المسؤول عن توزيع المؤونة عن حالتهم، وعندما رأى ذلك الرهبان توقفوا عن إزعاج معلمهم وبدأوا يقتدون بإيمانه واتكاله الثابت على الله.

(مأخوذ من كتاب كيف نحيا مع الله الجزء الثالث)